

الافتتاحية

(١)

«التوحيد وأنواعه»

سماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخليفه وأمينه على وحيه ، وصفوته من خلقه ، نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد :-

فإني أشكر الله عز وجل على ما من به من هذا اللقاء ، بإخوة في الله ، وبأبناء أعزاء ، أسأله سبحانه أن يجعله لقاءً مباركاً ، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعاً ، وأن يمنحنا الفقه في الدين والثبات عليه ، وأن يصلح أحوال المسلمين جميعاً في كل مكان ، وأن يولي عليهم خيارهم ، ويصلح قادتهم ، وأن يكثر فيهم دعاة الهدى إنه جواد كريم .

ثم أشكر القائمين على هذه الجامعة : جامعة أم القرى ، وعلى هذا المركز الصيفي ، وعلى رأسهم الأخ الكريم صاحب الفضيلة الدكتور راشد بن راجح مدير الجامعة على دعوتهم لي لهذا اللقاء ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن يوفقنا جميعاً لما فيه صلاحنا وسعادتنا في العاجل والآجل .

أيها الإخوة في الله ، أيها المستمعون الكرام : سمعنا جميعاً ما قرأه علينا الطالب من سورة الحشر ، سمعنا آيات كريمات فيها عبرة وذكرى ، يقول الله

(١) محاضرة ألقى في جامعة أم القرى بالمركز الصيفي .

جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) إلى آخر السورة .

ومن المعلوم أن كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره ، فيه الذكرى وفيه الدعوة إلى كل خير ، وفيه التذكير بأسباب النجاة والسعادة ، وفيه العظة والترغيب والترهيب .

فجدير بالمسلمين جميعاً أن يعتنوا بتدبره وتعقله ، وأن يكثروا من تلاوته لمعرفة ما أمر الله به وما نهى عنه ، حتى يعلم المؤمن ما أمر الله به فيمثله ، ويتعد عما نهى الله عنه .

فكتاب الله فيه الهدى والنور وفيه الدلالة على كل خير والتحذير من كل شر وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال والتحذير من سيئ الأخلاق ، وسيئ الأعمال ، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢) أي إلى الطريقة والسبيل التي هي أهدى السبل وأقومها وأصلحها ، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٥) فكتاب الله فيه الهدى والنور ، وفيه العظة والذكرى . فوصيتي لنفسي وللجميع ومن يسمع كلمتي أو تبلغه : العناية بهذا الكتاب العظيم ، فهذا أشرف كتاب ، وأعظم كتاب ، وهو خاتم الكتب المنزلة من السماء ، ومن تدبره وتعقله بقصد طلب الهداية ، ومعرفة الحق ، وفقه الله وهداه . وأهم ما اشتمل عليه هذا الكتاب العظيم ، بيان حق الله على عباده ، وبيان ضد ذلك . هذا أعظم موضوع اشتمل عليه القرآن ، وهو بيان حقه

(١) سورة الحشر ، الآية ١٨ .

(٤) سورة ص ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٩ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٤ .

سبحانه على عباده من توحيدِهِ، وإخلاص العبادة له، وإفراجه بالعبادة، وبيان ضد ذلك من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر، وأنواع الكفر والضلال.

ولو لم يكن في تدبر هذا الكتاب العظيم إلا العلم بهذا الواجب العظيم، وتدبر ما ذكره الله في ذلك، لكان ذلك خيراً عظيماً، وفضلاً كبيراً، فكيف وفيه الدلالة على كل خير، والترهيب من كل شر، كما تقدم.

ثم بعد ذلك العناية بالسنة، فإنها الأصل الثاني، والوحي الثاني، وفيها التفسير لكتاب الله والدلالة على ما قد يخفى من كلامه سبحانه، فهي الموضحة لكتاب الله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾^(٢)

فهو أنزل لدعوة الناس إلى الخير، وتعليمهم سبيل النجاة، وتحذيرهم من سبيل الهلاك، وأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يبين للناس ما أنزل إليهم، وأن يشرح لهم ما اشتبه عليهم. فلم يزل عليه الصلاة والسلام من حين بعثه الله إلى أن توفاه سبحانه يدعو الناس إلى ما دل عليه كتاب الله، ويشرح لهم ما دل عليه، ويحذرهم مما نهى عنه. وكانت المدة من حين بعثه الله إلى أن توفاه ثلاثاً وعشرين سنة، كلها دعوة وبيان وترهيب وترغيب، إلى أن نقل إلى الرفيق الأعلى عليه الصلاة والسلام.

ومحاضرتي هذه الليلة في أعظم موضوع، وأهم موضوع، وهو موضوع العقيدة، موضوع التوحيد وضده.

(١) سورة النحل، الآية ٤٤ .

(٢) سورة النحل، الآية ٦٤ .

فالتوحيد هو الأمر الذي بعث الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب، وخلق من أجله الثقلين، وبقية الأحكام تابعة لذلك. يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) المعنى أن يخصصه سبحانه بالعبادة، ويفردوه جل وعلا بها، ولم يخلقوا عبثاً ولا سدى، ولا ليأكلوا ويشربوا، ولا ليعمروا القصور ونحوها ولا لشق الأنهار، وغرس الأشجار، ولا لغير هذا من مهمات الدنيا، ولكنهم خلقوا ليعبدوا ربهم، وليعظموه، وليتمسكوا بأوامره، ويتنزهوا عن نواهيه، ويقفوا عند حدوده، وليوجهوا العباد إليه، ويرشدوهم إلى حقه.

وخلق لهم ما خلق من النعم ليستعينوا بها على طاعته، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(٣). والله جلا وعلا أنزل الأمطار، وأجرى الأنهار، ويسر للعباد من أنواع الرزق وأنواع النعم ما يعينهم على طاعته، وما يكون زاداً لهم إلى نهاية آجالهم، إقامة للحجة، وقطعاً للمعذرة. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥) وقال سبحانه: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(٦)، وقال جلا وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٧)

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٩ .

(٣) سورة الجاثية، الآية ١٣ .

(٤) سورة النحل، الآية ٣٦ .

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٢٥ .

(٦) سورة الزخرف، الآية ٤٥ .

(٧) سورة الإسراء، الآية ٢٣ .

وقال سبحانه في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) إلى غير ذلك من الآيات الدالات على أنه سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده، وأمرهم بذلك، وأرسل الرسل لهذا الأمر ليدعوا إليه، وليوضحوه للناس.

فوجب على أهل العلم خلفاء الرسل أن يبينوا للناس هذا الأمر العظيم، وأن يكون أعظم المطلوب، وأن تكون العناية به أعظم عناية، لأنه متى سلم صار ما بعده تابعاً له، ومتى لم يوجد التوحيد لم ينفع المكلف ما حصل من أعمال وأقوال، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَبَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤)، في آيات كثيرات. ويؤيد هذا المعنى أنه عليه الصلاة والسلام، مكث بمكة عشر سنين يدعو الناس إلى توحيد الله، قبل أن تفرض عليه الصلاة وغيرها، كلها دعوة إلى توحيد الله، وترك الشرك وخلع الأوثان، وبيان أن الواجب على جميع الثقلين أن يعبدوا الله وحده، ويدعوا ما عليه آبائهم وأسلافهم من الشرك. ولهذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب في أيام الهدنة، وكان أبو سفيان في وفد من قريش في تجارة بفلسطين، وصادف مجيء هرقل إلى القدس، فقبل له عنهم، فأمر بإحضارهم لسؤالهم عما يعلمون عن هذا النبي

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٢٣.

(٤) سورة الزمر، الآية ٦٥.

الذي بلغه خبره، وكان ذلك في وقت الهدنة، وعلى رأسهم أبو سفيان ابن حرب، فسألهم عنه، وعن قوله: إنه نبي؟!.

فأمر بأبي سفيان فأجلسه أمامه، وأجلسوا أصحابه خلفه، وقال لترجمانه قل لهم إني سائله فإن كذب فليكذبوه.

فسأل عن النبي ﷺ، وعن أشياء كثيرة معروفة في البخاري وغيره، ومما سأل عنه أن سألهم عما يدعوهم إليه؟.

فقالوا: يدعوننا إلى أن نعبد الله وحده، وأن نترك ما عليه آبائنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والصلة والعفاف.

فقال لهم: إن كان كما قلتم ليملكن موضع قدمي هاتين. فكان الأمر كما قال، فملك الله المسلمين الشام، وأزاح عنها الروم، ونصر الله نبيه وأيد حزبه.

والمقصود أن هذا الأصل هو الأمر العظيم.. ولما تساهل فيه الناس -إلا من رحم الله- وقعوا في الشرك الأكبر، وهم يدعون الإسلام وينكرون على من رماهم بخلافه، وهم على الشرك بسبب جهلهم بهذا الأصل العظيم، فقد اتخذوا كثيراً من الأموات آلهة من دون الله يعبدونهم، ويطوفون بقبورهم، ويستغيثون بهم، ويسألونهم شفاء المرضى، وقضاء الحاجات، والنصر على الأعداء، ويقولون هذا ليس بشرك وإنما هو تعظيم للصالحين، وتوسل بهم إلى الله، ويقولون أيضاً بأن الإنسان لا يدعو الله مباشرة وإنما يدعو الله بواسطة الأولياء، وهم كالوزراء بالنسبة إلى الرب، كما أن الوزراء بالنسبة للملوك هم الوساطة، فشبهوا الله بخلقه، وعبدوا خلقه من دونه نسأل الله العافية.

فكل هذا من أسباب الجهل، وقلة البصيرة بهذا الأصل العظيم، فعباد البدوي، وعباد الشيخ عبد القادر، وعباد الحسين، وعباد غيرهم من الناس، أصابهم البلاء من هذا السبيل، جهلوا حقيقة التوحيد، وجهلوا دعوة الرسل، والتبست عليهم الأمور، فوقعوا في الشرك واستحسنوه، وجعلوه ديناً وقرية، وأنكروا على من أنكر عليهم، وقل أن تجد في غالب الأمصار العالم البصير بهذا الأصل العظيم، بل تجد من يشار إليه بالأصابع، ويقال إنه العالم، وهو مع ذلك ممن يعظم القبور، التعظيم الذي لم يشرعه الله، ويدعو أهلها، ويستغيث بهم وينذر لهم ونحو ذلك.

أما علماء الحق، علماء السنة، علماء التوحيد فهم قليل في كل مكان.

فالواجب على الطلبة في هذه الجامعة، وعلى جميع الطلاب في جميع الجامعات الإسلامية أن يعتنوا بهذا الأصل، وأن يُحْكِمُوهُ غاية الأحكام، حتى يكونوا دعاة للهدى، ومبشرين بالحق، وحتى يكونوا مبصِّرين للناس بحقيقة دينهم الذي بعث الله به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام، وبعث به الرسل جميعاً.

وهذه الكلمة التي أقولها لكم الآن تتعلق بأنواع التوحيد وأنواع الشرك. والتوحيد مصدر وَّحَدَ يوحد توحيداً يعني وَّحَدَ الله أي اعتقده واحداً لا شريك له في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في ألوهيته وعبادته، سبحانه وتعالى. فهو واحد جل وعلا وإن لم يوحد الناس، وإنما سمي أفراد الله بالعبادة توحيداً، لأن العبد باعتقاده ذلك قد وَّحَدَ الله عز وجل، واعتقده واحداً فعامله على ضوء ذلك بإخلاص العبادة له سبحانه، ودعوته وحده، والإيمان بأنه مدبر الأمور وخالق الخلق، وأنه صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة وأنه يستحق العبادة دون كل ما سواه.

وعند التفصيل تكون أنواع التوحيد ثلاثة :

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات .
فتوحيد الربوبية أقرّ به المشركون، ولم ينكروه، لكنهم لم يدخلوا به في الإسلام لأنهم لم يخصوا الله بالعبادة، ولم يقرّوا بتوحيد الإلهية، بل أقرّوا بأن ربهم هو الخالق الرازق، وأن الله هو ربهم، ولكنهم لم يوحّدوه بالعبادة، فقاتلهم النبي ﷺ حتى يخلصوا العبادة لله وحده .

فتوحيد الربوبية معناه هو الإقرار بأفعال الرب، وتديره للعالم، وتصرفه فيه، هذا يسمى توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنه الخلاق الرزاق مدبر الأمور ومصرفها، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، ويحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير .

وهذا في الجملة أقرّ به المشركون، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾^(١)، وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ ﴾^(٣)

فهم معترفون بهذه الأمور، لكنهم لم يستفيدوا من هذا الإقرار في توحيد الله بالعبادة، وإخلاصها له سبحانه وتعالى، بل اتخذوا معه وسائط، وزعموا أنها شفعاء وأنها تقرّبهم إلى الله زلفى كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٤)

(١) سورة الزخرف، الآية ٨٧ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٣٨ .

(٣) سورة يونس، الآية ٣١ .

(٤) سورة يونس، الآية ١٨ .

فقال سبحانه رداً عليهم : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) فهو سبحانه لا يعلم له شريكاً لا في السماء ولا في الأرض ، بل هو الواحد الأحد ، سبحانه وتعالى الفرد الصمد ، المستحق للعبادة جل وعلا ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ^(٢) ثم قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(٣) ، والمعنى يقولون مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، يعني ماعبدناهم لأنهم يضررون وينفعون ، أو لأنهم يخلقون ويرزقون ، أو لأنهم يدبرون الأمور ، ولكن عبدناهم ليقربونا إلى الله زلفى ، كما قالوا في الآية السابقة من سورة يونس : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٤)

وعُرف بهذا أنهم لم يعتقدوا أن آلهتهم تنفع وتضر ، وتحيي وتميت ، وترزق وتعطي وتمنع ، وإنما عبدوهم ليشفعوأ لهم وليقربوهم إلى الله زلفى ، فاللات والعزى ومناة والمسيح ومريم والصالحون من العباد ، كل هؤلاء ماعبدهم المشركون الأولون ، لأنهم ينفعون ويضررون ، بل عبدوهم لأنهم يرجون شفاعتهم ، وأن يقربوهم إلى الله زلفى ، فحكم الله عليهم بالشرك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٥) ، وقال في آية الزمر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ ^(٦) فحكم عليهم بالكفر والكذب ، حين قالوا : مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فبين أنهم كذبة في زعمهم أنهم

(٤) سورة يونس ، الآية ١٨ .

(٥) سورة يونس ، الآية ١٨ .

(٦) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(١) سورة يونس ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الزمر ، الآيتان ٢ - ٣ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٣ .

يقربونهم إلى الله زلفى، كفره بهذا العمل، وهو عبادتهم إياهم بالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة ونحو ذلك.

وقد دعاهم ﷺ عشر سنين يقول لهم: يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا فأعرض عنه الأكثرون، ولم يهتد إلا الأقلون، ثم أجمع رأيهم على قتله، فأنجاه الله من شرهم ومن كيدهم، وهاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام، فأقام بها شريعة الله ودعا فيها إلى الله، وتقبل الدعوة الأنصار رضي الله عنهم، وجاهدوا معه عليه الصلاة والسلام وجاهد معه المهاجرون من قريش، ومن غيرهم حتى أظهر الله دينه، وأعلى كلمته، وأذل الكفر وأهله. وهذا النوع الذي أقر به المشركون هو توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله من خلق ورزق وتدبير وإحياء وإماتة وغير ذلك من أفعاله سبحانه كما سبق.

وهو حجة عليهم في إنكارهم توحيد الله بالعبادة لأنه يستلزمه، ويدل عليه ويوجبه. فلهذا أقام الله الحجة عليهم بهذا الإقرار فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِظُ﴾^(١) وفي الآيات الأخرى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)

ومن تدبر هذا الأمر الذي أقرؤا به، استفاد لو عقل أن هذا المتصف بهذه الصفات هو المستحق لأن يعبد، مادام هو الخلاق وهو الرزاق وهو المحيي وهو المميت وهو المعطي وهو المانع وهو المدبر للأمور، وهو العالم بكل شيء والقادر على كل شيء، فكيف تصرف العبادة لغيره، بل كيف يرجى غيره، ويخاف غيره، لو عقل أولئك الكفار، ولكنهم لا يعقلون:

(١) سورة يونس، الآية ٣١.

(٢) سورة يونس، الآية ١٦.

(٣) سورة يونس، الآية ٣.

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١) . وقال في المنافقين : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) ، وهكذا أشباههم كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ ^(٣) ، هؤلاء هم الغافلون حقاً وهم أشباه الأنعام ، بل هم أضل منها ، كما وصفهم الله بذلك في آيات بينات ، وحجج نيرات ، وبراهين ساطعات ، ومع ذلك لم يفهموها ولم يعقلوها ، واستمروا على كفرهم وضلالهم ، حتى حاربوه ﷺ يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق « يوم الأحزاب » ، استمروا في كفرهم وضلالهم ، ولم تنفع فيهم الآيات ، ولم يستفيقوا من غفلتهم وإعراضهم ، ولله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى والحجة الدامغة .

ثم إنه سبحانه أظهر نبيه ، وأعز دينه ، وقهر الأعداء ، فغزاهم ﷺ يوم الفتح ، ونصره الله عليهم ، وفتح بلادهم ، ودخلوا في دين الله أفواجا ، وعند ذلك أظهر عليه الصلاة والسلام توحيد الإلهية ، وقبله الناس ، ودخلوا في الحق ، ثم قامت ضده هوازن ، وأهل الطائف . فأظهره الله عليهم ، وشتت شملهم ، واستولى عليه الصلاة والسلام على نسائهم وذرياتهم وأموالهم ، وجعل الله العاقبة والنصر لنبيه ﷺ ، ولعباده المؤمنين فالحمد لله على ذلك .

والنوع الثاني : توحيد الأسماء والصفات ، وهو أيضاً من جنس توحيد الربوبية ، قد أقروا به وعرفوه . وتوحيد الربوبية يستلزمه ، لأن من كان هو

(١) سورة المجادلة ، الآية ١٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

الخلق الرزاق والمالك لكل شيء، فهو المستحق لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك له، ولا شبيه له، ولا تدركه الأبصار وهو السميع العليم، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)، وكما قال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢) وهم أي الكفار يعرفون ربهم بأسمائه وصفاته، وقد كابر بعضهم فأكذبهم الله بقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(٣)

النوع الثالث: هو توحيد الله بالعبادة، وهو معنى لا إله إلا الله، فإن معناها لا معبود حق إلا الله، فهي تنفي العبادة بجميع أنواعها عن غير الله، وتثبتها لله وحده سبحانه وتعالى.

وهذه الكلمة هي أصل الدين وأساسه كله، وهي الكلمة التي دعا إليها النبي ﷺ قومه ودعا إليها عمه أبا طالب فلم يسلم ومات على دين قومه . وقد أوضح الله معناها في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم منها قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُمَّ اكْبِرْ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٤) وقوله: جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٦)

(١) سورة الشورى، الآية ١١ .

(٢) سورة الإخلاص، الآيات من ١ - ٤ .

(٣) سورة الرعد، الآية ٣٠ .

(٤) سورة البقرة، الآية ١٦٣ .

(٥) سورة الإسراء، الآية ٢٣ .

(٦) سورة الفاتحة، الآية ٥ .

وقوله ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ الآية (١)، إلى غير ذلك من الآيات . وكلها تفسر هذه الكلمة، وتوضح أن معناها : إبطال العبادة لغير الله، وإثبات العبادة بحق لله وحده جل وعلا، كما قال سبحانه في سورة الحج :

﴿ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٢)، وقال في سورة لقمان : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٣)

فالله سبحانه وتعالى هو الحق، وله دعوة الحق، وعبادته هي الحق دون كل ما سواه سبحانه وتعالى، فلا يستغاث إلا به، ولا ينذر إلا له، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب الشفاء إلا منه، ولا يطاف إلا ببيته العتيق، إلى غير هذا من أنواع العبادة، وهو الحق ودينه الحق سبحانه وتعالى، ومن أتقن هذه الأنواع الثلاثة : أعني أنواع التوحيد، وحفظها واستقام على معناها، علم أن الله هو الواحد حقاً، وأنه هو المستحق للعبادة دون جميع خلقه، ومن ضيّع واحداً منها أضاع الجميع فهي متلازمة، لا إسلام إلا بها جميعاً، ومن أنكر صفات الله وأسماءه فلا دين له، ومن زعم أن مع الله مصرفاً للكون يدبر الأمور، فهو كافر مشرك في الربوبية بإجماع أهل العلم .

ومن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، ولكن لم يعبد الله وحده، بل عبد معه سواه من المشايخ أو الأنبياء أو الملائكة أو الجن أو الكواكب أو الأصنام أو غير ذلك فقد أشرك بالله وكفر به سبحانه

(١) سورة البينة، الآية ٥ .

(٢) سورة الحج، الآية ٦٢ .

(٣) سورة لقمان، الآية ٣٠ .

ولا تنفعه بقية الأقسام لا توحيد الربوبية، ولا توحيد الأسماء والصفات، حتى يجمع بين الثلاثة، فيقر بأن الله ربه هو الخالق الرازق المالك لجميع الأمور، ويقر بما كفر به المشركون، وحتى يؤمن بأنه سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا شبيه له، ولا شريك له، كما قال عز وجل:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) وقال عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣)

بقي الأمر الثالث: وهو توحيد العبادة، وهو معنى لا إله إلا الله، وهو الأساس العظيم لدعوة الرسل لأن النوعين الآخرين لم ينكرهما المشركون كما تقدم، وإنما أنكروا هذا النوع وهو توحيد العبادة، لما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾^(٤)، وقالوا أيضاً: ﴿ إِنَّا لَنَارِكُوكَ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴾^(٥)، وقبلها قوله سبحانه: ﴿ إِنْتُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوكَ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونِ ﴾^(٦)، فكذبهم الله بقوله: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٧)

وهذا النوع هو توحيد العبادة، وهو الذي أنكره المشركون الأولون، وينكره المشركون اليوم، ولا يؤمنون به، بل عبدوا مع الله سواه، فعبدوا الأشجار والأحجار وعبدوا الأصنام، وعبدوا الأولياء والصالحين،

(١) سورة الإخلاص، الآيات ١-٤ .

(٥) سورة الصافات، الآية ٣٦ .

(٦) سورة الصافات، الآيتان ٣٥-٣٦ .

(٢) سورة النحل، الآية ٧٤ .

(٧) سورة الصافات، الآية ٣٧ .

(٣) سورة الشورى، الآية ١١ .

(٤) سورة ص، الآية ٥ .

واستغاثوا بهم، ونذروا لهم وذبحوا لهم، إلى غير هذا مما يفعله عباد القبور وعباد الأصنام والأحجار وأشباههم، وهم بذلك مشركون كفار، إذا ماتوا على ذلك، لا يغفر لهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٣)

فلا بد من تحقيق هذا النوع، وإفراد الله بالعبادة ونفي الإشراك به سبحانه وتعالى، والاستقامة على ذلك، والدعوة إليه، والموالاتة فيه، والمعاداة عليه، وبسبب الجهل بهذا النوع، وعدم البصيرة فيه يقع الناس في الشرك، فيحسبون أنهم مهتدون، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤)، وقال في حق النصارى وأمثالهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٥) فالكافر لجهله وانتكاس قلبه، يحسب أنه محسن، وهو يعبد غير الله، ويدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويتقرب بالذبائح والنذور لغيره عز وجل، وما ذلك إلا لجهله وقلة بصيرته، وقد أنزل الله فيهم عز وجل قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٦) وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(٧) فالواجب على أهل العلم، وعلى طلاب العلم أن يعنوا بهذا النوع

(٥) سورة الكهف، الآيتان ١٠٣-١٠٤ .

(٦) سورة الفرقان، الآية ٤٤ .

(٧) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

(١) سورة النساء، الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٨ .

(٣) سورة المائدة، الآية ٧٢ .

(٤) سورة الأعراف، الآية ٣٠ .

أعظم عناية، لكثرة الجهل به، ووقوع أكثر الخلق في ضده.

أما النوعان الآخران: فهما بحمد الله من أوضح الأشياء وأبينها، لكن هذا النوع أعني توحيد العبادة يشتهه على أكثر الناس بسبب الشبه الكثيرة التي يروجها أعداء الله، ويلبسون بها على كثير من الناس، والأمر فيها بحمد الله واضح لمن نور الله بصيرته وهي شبه باطلة لا وجه لها.

فالحق واضح أبلج، وهو وجوب إخلاص العبادة لله وحده، دون كل ما سواه، كما قال عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ * وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ لَا يَنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾^(٤)، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٥)

في آيات كثيرات كلها دالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، وأن صرف العبادة لغير الله شرك وكفر، وهكذا لو اعتقد أن شخصاً أو جماداً يصلح أن يعبد كفر وإن لم يعبد، فلو اعتقد أن هذا الصنم أو هذا الشخص كجبرائيل أو النبي محمد ﷺ، أو الشيخ عبد القادر الجيلاني أو البدوي أو الحسين، أو علي بن أبي طالب، لو اعتقد أن واحداً منهم أو غيرهم يصلح

(١) سورة غافر، الآية ١٤.

(٢) سورة فاطر، الآيتان ١٢-١٣.

(٣) سورة الجن، الآية ١٨.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ١١٧.

(٥) سورة يونس، الآية ١٠٦.

للعباداة، وأنه لا بأس أن يدعى من دون الله، ولا بأس أن يستغاث به صار كافراً، وإن لم يفعل شيئاً.

وهكذا لو اعتقد أنهم يعلمون الغيب، أو يتصرفون في الكون كان كافراً بهذا الاعتقاد، عند جميع أهل العلم، فكيف إذا دعاهم من دون الله، أو استغاث بهم أو نذر لهم فإنه يكون بذلك مشركاً شركاً أكبر.

وهكذا إذا سجد لهم أو صلى لهم أو صام لهم صار بذلك مشركاً شركاً أكبر، نسأل الله السلامة من ذلك.

و ضد التوحيد الشرك وهو أنواع ثلاثة، والحقيقة أنه نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

فالشرك الأكبر: هو ما يتضمن صرف العباداة لغير الله أو بعضها، أو يتضمن جحد شيء مما أوجب الله من الأمور المعلومه من الدين بالضرورة كالصلاة، وصوم رمضان، أو يتضمن جحد شيء مما حرم الله، مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر ونحوها، أو يتضمن طاعة المخلوق في معصية الخالق على وجه الاستحلال لذلك، وأنه يجوز أن يطاع فلان أو فلانة، فيما يخالف دين الله عز وجل، من رئيس أو وزير أو عالم أو غيرهم فكل ما يتضمن صرف بعض العباداة لغير الله كدعاء الأولياء، والاستغاثة بهم والنذر لهم، أو يتضمن استحلال ما حرم الله، أو إسقاط ما أوجب الله، كاعتقاد أن الصلاة لا تجب أو الصوم لا يجب أو الحج مع الاستطاعة لا يجب، أو الزكاة لا تجب، أو أعتقد أن مثل هذا غير مشروع مطلقاً، كان هذا كفراً أكبر، وشركاً أكبر، لأنه يتضمن تكذيب الله ورسوله.

وهكذا لو اعتقد حل ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كاستحلال الزنا والخمر، وعقوق الوالدين، أو استحلال قطع الطريق أو

اللواط أو أكل الربا، وما أشبه ذلك من الأمور المعروفة بتحريمها بالنص والإجماع. إذا اعتقد حلها كفر إجماعاً، نسأل الله العافية وصار حكمه حكم المشركين شركاً أكبر.

وهكذا من استهزأ بالدين، وسخر به حكمه حكمهم، وكفره كفر أكبر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (١) وهكذا لو استهان بشيء مما عظمه الله احتقاراً له، وازدراء له، كأن يستهين بالمصحف، أو يبول عليه، أو يطأ عليه، أو يقعد عليه، أو ما أشبه ذلك استهانة به، كفر إجماعاً، لأنه بذلك يكون متنقصاً لله، محتقراً له، لأن القرآن كرمه سبحانه وتعالى، فمن استهان به فقد استهان بالله عز وجل، وهذه الأمور قد أوضحها العلماء في باب حكم المرتد ففي كل مذهب من المذاهب الأربعة ذكروا باباً سموه: باب حكم المرتد، أوضحوا فيه جميع أنواع الكفر، والضلال وهو باب جدير بالعناية، ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع الردة، والتبس الأمر في ذلك على كثير من الناس، فمن عني به حق العناية عرف نواقض الإسلام، وأسباب الردة، وأنواع الكفر والضلال.

والنوع الثاني: الشرك الأصغر وهو ما ثبت بالنصوص تسميته شركاً، لكنه لم يبلغ درجة الشرك الأكبر، فهذا يسمى شركاً أصغر مثل: الرياء والسمعة كمن يقرأ يرأى، أو يصلي يرأى، أو يدعو إلى الله يرأى ونحو ذلك. فقد ثبت في الحديث أنه ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين:

(١) سورة التوبة، الآيتان ٦٥-٦٦.

اذهبوا إلى من كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»
رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد الأشهلي الأنصاري رضي
الله عنه ، ورواه الطبراني أيضاً والبيهقي وجماعة مرسلاً عن محمود المذكور
وهو صحابي صغير لم يسمع من النبي ﷺ ولكن مرسلات الصحابة
صحيحة وحجة عند أهل العلم، وبعضهم حكاه إجماعاً.

ومن ذلك قول العبد ما شاء الله وشاء فلان ، أو لولا الله وفلان ، أو
هذا من الله ومن فلان .

هذا كله من الشرك الأصغر كما في الحديث الذي رواه أبو داود بإسناد
صحيح عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقولوا
ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » .

ومن هذا ما رواه النسائي عن قتيلة أن اليهود قالوا لأصحاب النبي
ﷺ : إنكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، وتقولون والكعبة .
فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة وأن يقولوا
ما شاء الله ثم شاء محمد - وفي رواية للنسائي أيضاً عن ابن عباس رضي الله
عنهما أن رجلاً قال : يا رسول الله ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتني لله
نداً ما شاء الله وحده » . ومن ذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١)
قال : هو الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الثمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ،
وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول لولا كلبية هذا لأتانا
اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه :
ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً . هذا
كله به شرك ، رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن .

فهذا وأشباهه من جنس الشرك الأصغر . وهكذا الحلف بغير الله ، كالحلف بالكعبة ، والأنبياء والأمانة و حياة فلان ، وبشرف فلان ونحو ذلك ، فهذا من الشرك الأصغر لما ثبت في المسند بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من حلف بشيء دون الله فقد أشرك » وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي رحمهم الله بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » .

وهذا يحتمل أن يكون شكاً من الراوي ، ويحتمل أن أو بمعنى الواو ، والمعنى فقد كفر وأشرك .

ومن هذا مارواه الشيخان عن عمر رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وهذه أنواع من الشرك الأصغر ، وقد يكون أكبر على حسب ما يكون في قلب صاحبه ، فإذا كان في قلب الحالف بالنبي أو البدوي أو الشيخ فلان أنه مثل الله ، أو أنه يدعى مع الله ، أو أنه يتصرف في الكون مع الله أو نحو ذلك ، صار شركاً أكبر بهذه العقيدة ، أما إذا كان الحالف بغير الله لم يقصد هذا القصد ، وإنما جرى على لسانه من غير هذا القصد لكونه اعتاد ذلك ، كان ذلك شركاً أصغر .

وهناك شرك يقال له : الشرك الخفي ذكر بعض أهل العلم أنه قسم ثالث ، واحتج عليه بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري : أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : الشرك الخفي : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه » خرجه الإمام أحمد .

والصواب : أن هذا ليس قسماً ثالثاً ، بل هو من الشرك الأصغر ، وهو قد يكون خفياً لأنه يقوم بالقلوب ، كما في هذا الحديث ، والذي يقرأ يرأي ، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يرأي ، أو يجاهد يرأي ، أو نحو ذلك . وقد يكون خفياً من جهة الحكم الشرعي بالنسبة إلى بعض الناس كالأنواع التي في حديث ابن عباس السابق .

وقد يكون خفياً وهو من الشرك الأكبر كاعتقاد المنافقين .. فإنهم يراؤون بأعمالهم الظاهرة وكفرهم خفي ، لم يظهره كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ الآية (١) والآيات في كفرهم وريائهم كثيرة ، نسأل الله العافية .

وبما ذكرنا يعلم أن الشرك الخفي لا يخرج عن النوعين السابقين : -
شرك أكبر ، وشرك أصغر ، وإن سمي خفياً : فالشرك يكون خفياً ويكون جلياً .

فالجلي : دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات والنذر لهم ، ونحو ذلك .
والخفي : ما يكون في قلوب المنافقين يصلون مع الناس ، ويصومون مع الناس ، وهم في الباطن كفار يعتقدون جواز عبادة الأوثان والأصنام ، وهم على دين المشركين . فهذا هو الشرك الخفي الأكبر ، لأنه في القلوب .

وهكذا الشرك الخفي الأصغر ، كالذي يقصد بقراءته ثناء الناس ، أو بصلاته أو بصدقته أو ما أشبه ذلك . فهذا شرك خفي ، لكنه شرك أصغر .

فاتضح بهذا أن الشرك شركان : أكبر وأصغر وكل منهما يكون خفياً : كشرك المنافقين .. وهو أكبر ، ويكون خفياً أصغر كالذي يقوم يرأي في

(١) سورة النساء ، الآيتان ١٤٢-١٤٣ .

صلاته أو صدقته أو دعائه لله ، أو دعوته إلى الله أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو نحو ذلك .

فالواجب على كل مؤمن أن يحذر ذلك ، وأن يتعد عن هذه الأنواع ، ولا سيما الشرك الأكبر ، فإنه أعظم ذنب عصي الله به ، وأعظم جريمة وقع فيها الخلق ، وهو الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) ، وقال فيه سبحانه وبجملته : ﴿ إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ ^(٢) وقال فيه سبحانه أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٣)

فمن مات عليه فهو من أهل النار جزماً ، والجنة عليه حرام ، وهو مخلد في النار أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك .

أما الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر ، وصاحبه على خطر عظيم ، لكن قد يمحي عن صاحبه برجحان الحسنات ، وقد يعاقب عليه ببعض العقوبات ، لكن لا يخلد في النار خلود الكفار ، فليس هو مما يوجب الخلود في النار ، وليس مما يحبط الأعمال ، ولكن يحبط العمل الذي قارنه .

فالشرك الأصغر يحبط العمل المقارن له ، كمن يصلي يرأى فلا أجر له ، بل عليه إثم .

وهكذا من قرأ يرأى فلا أجر له بل عليه إثم ، بخلاف الشرك الأكبر ، والكفر الأكبر فإنهما يحبطان جميع الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٤)

(١) سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٦ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .

فالواجب على الرجال والنساء وعلى العالم والمتعلم، وعلى كل مسلم، أن يعنى بهذا الأمر ويتبصّر فيه، حتى يعلم حقيقة التوحيد بأنواعه، وحتى يعلم حقيقة الشرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، وحتى يبادر بالتوبة الصادقة مما قد يقع منه من الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر، وحتى يلزم التوحيد، ويستقيم عليه، وحتى يستمر في طاعة الله، وأداء حقه، فإن التوحيد له حقوق، وهي أداء الفرائض، وترك المناهي، فلا بد مع التوحيد من أداء الفرائض، وترك المناهي، ولا بد أيضاً من ترك الإشراك كله: صغيرة وكبيرة.

فالشرك الأكبر ينافي التوحيد، وينافي الإسلام كلياً، والشرك الأصغر ينافي كما له الواجب، فلا بد من ترك هذا وهذا.

فعلينا جميعاً أن نعنى بهذا الأمر، ونتفقه فيه، ونبلغه للناس بكل عناية وبكل إيضاح حتى يكون المسلم على بينة من هذه الأمور العظيمة.

والله المسئول عز وجل أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يمنحنا والمسلمين جميعاً الفقه في دينه والثبات عليه، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته، ويجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين، إنه سميع قريب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.